

الانترنت... سلاح ذو حدين : " ظاهرة عنف المعلومات ... وإرهاقها "

د/سيف الدين هبية

جامعة غرداية

غرداية ص ب 455 غرداية 47000، الجزائر

تمهيد :

الزحام يمكن أن يختلط كل ما هو زائف مع ما هو حقيقي، ولذلك فإن التعامل مع الانترنت في حالة دائمة مع مطاردة المعرفة من أجل تمحيصها وتجديدها، ولعل الفارئ العربي هو أحوج ما يكون إلى تلك العملية من تمحيص الحقائق، فهو جديد وسط هذا الخضم، ولن يستطيع النفاذ إلى ذلك العالم المعرفي الهائل إلا من خلال وسيط معرفي⁽¹⁾، ويمكن أن يكون هذا الوسيط ورقيا في شكل كتاب أو مجلة.

"ولقد تجاوزت شبكة الانترنت حدود ما هو تكنولوجي إلى ما هو إنساني واجتماعي واقتصادي وسياسي وأصبحت الفضاءات الثقافية والاقتصادية والسياسية مفتوحة لتدفق تأثيرات العولمة، ومن ثم أصبح العالم الافتراضي الالكتروني يؤثر على ما هو واقعي، فقد تغلغت استخداماته في شتى مجالات الحياة، كما أنه صار يشكل حيزا افتراضيا عاما (فضاء عام) يتجاوز المكان والحدود، الأمر الذي ساعد على حدوث قدر كبير من التواصل والتفاعل بين أفراد وجماعات جميع البلدان واللغات والثقافات والهويات حول مجموعة من القضايا والاهتمامات المشتركة التي يتبادلون فيها المعارف والآراء، وذلك عبر شاشات الكمبيوتر ومن خلال الرسائل الالكترونية دون أن يقابل بعضهم الآخر أو يعرفه بصورة شخصية، وقد تطورت هذه الأطر واكتسبت زخما كبيرا بظهور عدد من مواقع التواصل الاجتماعي مثل تويتر وفيس بوك وغيرها، حيث قدمت سبلا جديدة للتواصل الاجتماعي وتكوين الشبكات الاجتماعية مختلفة المشارب ومتباينة الأهداف، ولقد أصبحت شبكة الانترنت إحدى مظاهر الحياة العصرية التي يتأثر بها المجتمع العربي عامة والجزائري خاصة، وفي الآونة الأخيرة وضحت آثار الانترنت ومنها تشكيل كيانات اجتماعية رقمية، حيث إن الذين يستخدمون الشبكة يخلقون في الواقع مجتمعا كونيا افتراضيا يقوم على العلاقات الاجتماعية

"لم يكن أحد يدري حين بدأت الانترنت كشبكة بين الجامعات في 1964 أنها ستتمو بهذا المعدل الرهيب لتمثل كيانا عالميا للمعرفة والمعلومات، المال والتجارة، الدعاية والسياسية، التسلية والترفيه، بالصوت والصورة الثابتة والمتحركة، وتستوعب كل أشكال الاتصال بين البشر، فحتى عام 1981 لم يزد عدد المواقع عن مائتي موقع، ثم كان انفجار استخدامها في التسعينيات من القرن العشرين، فدخل أكثر من 45 ألف شبكة أخرى في الانترنت في منتصف ذلك العقد"⁽¹⁾، وقد أصبحت الانترنت بحجم شبكة الهاتف في عام 2005 _ كما توقع الخبراء _ أي حوالي 600 مليون مشترك.

ونحن اليوم على أبواب ثقافة جديدة، "فقد أصبح دور الثقافة أساسيا وانتقل من المساهمة الهامشية إلى أن يكون غاية في حد ذاته، وقد تنبه رجال الاقتصاد أخيرا إلى أن تختلف الأنماط الثقافية هو الذي يقود إلى التخلف بمعناه الشامل وليس الافتقار إلى المواد الضرورية أو التكنولوجيا المتقدمة.

ومن الطبيعي أن تتأثر الثقافة بكل التقنيات المعاصرة التي نشاهدها الآن، بل إن بعض المتقائلين يطلقون على شبكة المعلومات (الانترنت) أنها شبكة من الثقافات المتنوعة، لأنها تحمل في طياتها كل الأشكال التي أنتجت هذه الثقافات وتساهم في تشكيل وعي الفئات الاجتماعية المختلفة، كما أنها قد أصبحت بشكل أساسي، تلعب دورا في العملية التعليمية للعديد من البلدان المتقدمة طبعا... إن العيب الأول الذي يمكن أن يحير التعامل مع الانترنت هو ذلك التراكم الكثيف في المعلومات، لذا فقد أصبح البحث عن المعلومات وسط تشابك هذه الخطوط العنكبوتية هو معضلة في حد ذاته. وهكذا يمكن القول إننا نواجه حالة من زوغان المعرفة وعدم القدرة اليقينية على الإمساك بها، ففي مثل هذا

ما بعد الحداثة، أي شيء لا يحفظ أو يخزن أو لا يمكن ترجمته في أي شكل مميز أو مخزن بالحاسوب تحديداً، أي شيء لا يصبح رقمياً، سيتوقف عن كونه معرفة. كما يؤكد الباحثون والمفكرون في هذا المجال، وبهذا المفهوم أو هذا التصور فإن عكس المعرفة ليس الجهل، كما هو التصور في مجتمع الحداثة، بل المعرفة فهو ضوضاء. "noise"، فأى شيء لا يتأهل ليصبح معرفة فهو ضوضاء. وبهذا أصبح من السهل في عصر الاتصال الإلكتروني خلق "مجتمعات سيكولوجية" تقوم بتوسيع نطاق علاقاتنا عبر الوقت والمسافة، حتى يتم في النهاية خلق "مجتمعات افتراضية"، التي تتكون من الناس الذين نعرفهم فقط من خلال شبكات الاتصال، ولعل هذا الاتجاه هو ما يقودنا إلى مجتمع ما بعد الحداثة، وفي مجتمع ما بعد الحداثة تذوب الدول لتصبح كيانات هلامية..... إن الإنترنت يفتح عصراً جديداً لاكتمال العقل البشري وقدراته التكنولوجية..... وقد أبرزت نتائج الدراسة الميدانية ذبوع وانتشار استخدام الموبايل والاعتماد عليه كأحدى وسائل الحصول على المعلومات وتبادلها بين الأصدقاء، ومن ثم فقد تجاوز الموبايل دوره الأساسي في إجراء المكالمات الاتصالية فقط، بل أصبح أيضاً وسيلة للحصول على المعلومات من جانب، وأصبح من جانب آخر صندوق بريد متحرك... إذا فالموبايل أصبح اليوم لغة التعامل اليومي، فهو أداة تصوير فوتوغرافي وفيديو، وهو آلة عرض أيضاً، كما يعتمد عليه كحاسب آلي شخصي يمكن الاحتفاظ على ذاكرته ببعض المعلومات وبعض التفاصيل..... كما تعتبر الفضائيات من أكثر مصادر المعلومات إتاحة، نظراً لتواجدها في أغلب البيوت..... فمع تعدد القنوات.... أصبحت الفضائيات مصدراً لا يستهان به في الحصول على أغلب المعلومات التي نريدها"⁽⁵⁾.

" وليس من شك أن لتكنولوجيا المعلومات - مثلها في ذلك مثل التكنولوجيات الأخرى - وجهها القبيح الذي أخذت ملامحه تزداد وضوحاً يوماً بعد يوم، وبتنا نسمع عن عنف عصر المعلومات وإرهابه وقد اتخذ صوراً مختلفة أشد الاختلاف عما سبقها، سواء من حيث الأساليب أو وسائل التصدي، والأهم من هذا وذلك، من حيث أثارهما، المباشرة وغير المباشرة، سواء على الفرد أو المجتمع الإنساني بصفة عامة وعلى اختلاف مظاهره ومستوياته، يكون العنف سلوكاً يمارسه من بيده القوة على من لا حول له منها، والمعلومات بلا شك - بصفاتها مصدراً للقوة - من أمضى أسلحة العصر، و"المعرفة قوة" كما تلخصها لنا مقولة "فرنسيس بيكون" الشهيرة، والتي ربما سبقه إليها بالآلاف السنين إمبراطور الصين "صان تسو" فهو

الافتراضية التي تتطوي على نزعة فردية واضحة. لذلك يرى بعض الباحثين بأن الإنترنت يقلل من الروابط الاجتماعية ويزيد من العزلة الاجتماعية، ولكن في المقابل يشير آخرون إلى أن استخدام الإنترنت وخاصة الفيس بوك، يمكن أن يبسر بناء وصيانة علاقات اجتماعية دائمة"⁽³⁾. وهكذا نجد أنفسنا أمام تعدد مسميات هذا العصر الذي نعيشه اليوم، فهناك من يشير إليه بعصر التقنية العالية، وتقنية المعلومات، وعصر المعلومات، وعصر الاتصال، وطريق المعلومات السريع، وعصر التشبيك (دلالة على تشابك نظم الحوسبة عبر شبكات المعلومات) جميعها وغيرها تعبيرات لعصر الاعتماد على المعلومات كمحدد استراتيجي، وليس المعلومات بذاتها، وإنما القدرة على توفيرها، ومعالجتها، وتخزينها، وتبويبها، واستعادتها، ونقلها، وتبادلها.

ومن ثم يعكس مجتمع المعلومات العديد من التغيرات والتحولات الكبرى، كنتيجة للتطبيق واسع النطاق لتكنولوجيا المعلومات الجديدة، فكل شيء من حولنا يتحول من الحالة التناظرية والتماثلية analogie إلى الحالة الرقمية Digital والالكترونية électronique، ومن هذا المنطلق يعيش العالم اليوم ثورة من التغيرات التقنية والاقتصادية والعلمية بشكل متسارع ومذهل، الأمر الذي جعل هذا العالم أجمع قرية صغيرة ليس فيها بعيد من خلال تكنولوجيا المعلومات وشبكات الاتصال والأقمار الصناعية التي تنقل كل أنواع المعلومات وبين أقطار العالم من الصورة إلى الصوت إلى الفيديو، هذا بالإضافة إلى البرامج والأنظمة بشكل لحظي وحي، ولم يبق لعلم الاتصالات إلا أن يحقق انتقال اللحم والدم والمادة بشكل إلكتروني، وهذه التغيرات التكنولوجية المتسارعة قد انعكست على المسار الحضاري للبشرية جمعاء وأدت إلى تغييرات ثقافية واجتماعية وسياسية، وتشير التجارب والصور المتنوعة للدور الذي تلعبه تكنولوجيا المعلومات والاتصالات في عالم اليوم، إلا أننا أمام واقع جديد يمزق ويتجاوز عباءة ما هو تقني، ويدخل المظلة الرحبة لما هو إنساني واجتماعي، واقع يفرض حقائق جديدة ترتبط بالحق في الحصول على المعلومات ووسائل الاتصال من ناحية، والحريات السياسية وحقوق الإنسان من ناحية أخرى"⁽⁴⁾.

1. بعض آثار ومخاطر الانترنت :

وكما جاء في إحدى المجالات (العربي) فإن "جيدنز" يرى أن المجتمعات المحلية وتقاليد الراسخة تبلى تماماً بفعل الحداثة في مرحلة الحداثة المتأخرة (أو ما يسميها البعض ما بعد الحداثة)، ويحدث ذلك بسبب العولمة، فوسائل الإعلام الحديثة المسموعة والمرئية لديها المقرة على اختراق كل بيت وكل مجتمع محلي في العالم، وتنقل معها التصوير التجاري. ففي مجتمع

السيئة للتلفزيون على التنشئة الاجتماعية وربما الوقت هنا لا يسمح لنا بالإتيان عليها - آلة حرب كأسلحة لا بد أن نتصدى لها بالدروع والعتاد. ألم نسمع عن القمر الصناعي للبث التلفزيوني الذي كانت الولايات المتحدة تحت إدارة جورج بوش (الأب) تنوي إطلاقه بهدف إسقاط حكم كاسترو المناهض لها في كوبا؟
من حيث أسلوب الممارسة، تختلف القوى اللينة عن القوى الصلبة في أمور عدة أساسية من أهمها :

- القدرة الهائلة على المناورة بالقوى اللينة زمنيا وجغرافيا، وكون القوى الصلبة لا تستخدم إلا في حالات الضرورة القصوى في حين تمارس القوى اللينة بصورة مستمرة ودائمة .

- وفي وقت الأزمات والحروب والصراعات، توضع القوى الرمزية اللينة في خدمة القوى التقليدية الأخرى، وشهد التاريخ، من الحروب الصليبية إلى الحروب الأهلية بين قبائل الشعوب الإفريقية والآسيوية⁽⁷⁾ إلى ما تشاهدونه اليوم وتسمعون عنه، وهو ما أكدته الأحداث والاحتجاجات والثورات العربية -أو ما يسمى اليوم إعلاميا- "بالربيع العربي" منذ مطلع عام 2011 م، أي بعد عشر سنوات من أحداث 11 من سبتمبر 2001 م، فهي خطة متواصلة، إلا أنها كل مرة تأخذ شكلا جديدا بحسب المتغيرات والوقت والظروف والأمكنة والمعطيات والمستجدات، والتي كما أثبتته الدراسات (دراسة الدكتور نجلاد محمود رؤوف السيد المصليحي) " أوضحت أن رواد موقع الفيس بوك في البلاد العربية ومصر على الخصوص قد أدركوا أن الواقع المعيش لا يشبع غالب احتياجاتهم ولا سيما الحاجة إلى حرية التعبير، فاندفعوا إلى المجتمع الافتراضي متخذين من صفحات "الفيس بوك" سيقا اجتماعيا شاملا لجميع العلاقات الإنسانية، ومنقدين لجميع النظم الاجتماعية القائمة التي عجزت عن استيعاب احتياجاتهم الإنسانية، ومن ثم فقد وجدوا في صفحات "الفيس بوك" ملاذهم، باعتباره منبرا أساسيا يعوض جمود الحياة الحزبية وفشلها، وسبيلا للتواصل والحشد لمحاولة إضعاف الأنظمة السياسية التي تشكل عقبة أمام دوران عجلة التحديث والتغيير ولقد شكلت ظاهرة الفيس بوك ظاهرة سوسيولوجية حية ومستمرة، عكست واقع المجتمع بكل تفاصيله وقضاياه وكيفية تفاعل المجتمع - العربي وخاصة المصري- مع المستجدات الإلكترونية في حياته اليومية والشئ الذي يقال عن "الفيس بوك" يمكن أن نقوله عن مواقع التواصل الاجتماعي الأخرى "تويتر وسكايب واليوتيوب

القاتل": المعرفة هي القوة التي تمكن العاقل من أن يسود، والقائد من أن يهاجم بلا مخاطر، وأن ينتصر بلا إراقة دماء، وأن ينجز ما يعجز عنه الآخرون"، وجاءت تكنولوجيا المعلومات لتضيف كل يوم شاهدا جديدا على صحة هذه المقولة بعد أن أصبحت المعلومات والمعرفة أهم ركائز القوة السياسية والاقتصادية والعسكرية، ويزداد ثقلها يوما بعد يوم في موازين القوة العالمية . لقد باتت هذه الأمور واضحة بصورة لا تحتاج إلى مزيد من التلليل والتأكيد، وما نود أن نضيفه هنا هو ما يشهده عصرنا من تطورات قلبت رأسا على عقب مقولة "فرنسيس بيكون" سالف الذكر، فكما أن "المعرفة قوة" فالقوة أيضا معرفة"، كما خلص إلى ذلك "ميشيل فوكو"، وقد قصد بذلك أن القوى السياسية والاقتصادية والعسكرية والأيدولوجية، تعمل بصورة مباشرة وغير مباشرة- على توليد خطاب معرفي يخدم أغراضها ويروج لأفكارها سعيا لتثبيت سلطانها وتأمين مصالحها وبالتالي... فإن قاموس العصر كما أسلفت لكم يمزج بالعديد من مصطلحات العنف المعلوماتي نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

- العنف الرمزي
- الاستغلال المعلوماتي
- الفجوة الرقمية
- احتلال الفضاء المعلوماتي
- التجويع المعرفي
- ضراوة أجهزة الإعلام
- العصف بالعقول
- تزييف العقول عن بعد .
- الامبريالية الرقمية .
- القمع الأيدولوجي⁽⁶⁾.

" بصفة عامة، يمارس العنف المعلوماتي من خلال ما يمكن أن نطلق عليه "القوى الرمزية اللينة" soft powers التي تختلف جوهريا عن القوى التقليدية الصلبة hord powers"، فهي تعمل بال جذب لا بالضغط، وبالترغيب لا بالترهيب، وتستخدم لغة تخاطب العقول والقلوب، من أجل اكتساب الآراء لا كسب الأرض، ومن أجل انتزاع الإرادة الجماعية لا نزع السلاح والملكية، ومن أجل فرض المواقف وزرع الآراء بدلا من فرض الحصار وزراعة الألغام، ونستطرد في حديث الفوارق بين القوى اللينة والقوى الصلبة لنشير إلى كيف أصبح توسيع نطاق الإعلام في مقام نشر القوات، وأصبحت الأجندة في مقام التكتيك، والهوائيات والفضائيات في مقام ترسانات الأسلحة ومنصات الصواريخ، وهكذا أصبح التلفزيون، وغيره من وسائل الإعلام - نكلمنا في محاضرات التنشئة الاجتماعية لطلبة السنة الثالثة تربوي عن تلك الآثار

وقد يؤدي أي خلل بها لتعطيل حضارة بكاملها، وسيكون هناك دائما خطر أنظمة الذكاء الاصطناعي التي تتحكم في أسلحتنا النووية ومواردنا النقدية ومحطات توليد الطاقة.

أما الأنترنت فلم يشفع لها ما أحدثته من ثورة في الاتصال، وما قام بها من انسياب فيض من المعلومات والآراء أصبح متاحا بلمسة زر لبني البشر وإنما يدور الجدل الآن حول الجانب السلبي في الاستخدام، فعلى المستوى الفردي: إدمان الأنترنت والعزلة عن المجتمع والآثار الصحية على البصر، وتلك الناجمة عن الجلوس لفترة طويلة، وعلى المستوى الاجتماعي: الجرائم الأخلاقية كتجارة الرقيق الأبيض، ودعارة الأطفال وبت الأفكار المتطرفة، وجرائم غسيل الأموال واختراق حسابات البنوك.

أما الآثار عن البنية الاجتماعية والاقتصادية: "فستتعدد صناعات وتهبط صناعات، وستزدهر وظائف وتندهر وظائف أخرى، ومن أمثلة الوظائف المهددة، الوظائف النمطية القائمة على التكرار، ووظائف متابعة الجرد ووظائف الوسطاء في مجال وكالات النقد والبنوك ومحلات الفيديو وأسواق الأسهم التي ستتم كلها على الأنترنت: "التهديد الأكبر سيصيب صناعة الطباعة التي قد تتحول إلى شكل جديد وأرقى.

"أما الوظائف التي ستزدهر حتى بوجود طريق المعلوماتية السريع فمنها الوظائف الإبداعية والترفيهية مثل الكتابة والتمثيل نتيجة ازدياد وقت الفراغ، كذلك وظائف البرمجة وصناعة الخدمات والوظائف الماهرة والحرفية وخدمات المعلوماتية وسيكون هناك دوما طلب على الكفاءات العلمية.

أما النظام الطبقي للمجتمع فيترتب على أساس معلوماتي يأتي على قمته أقطاب تكنولوجيا المعلومات يليهم العاملون فيها، ثم العمال اليدويون، ثم "الضائعون" الذين تجاوزتهم ثورة الكمبيوتر.

وفي إطار المجتمع الدولي فإن القوة الاقتصادية والعسكرية للدول لم تعد مقصورة على العنصر البشري حصرا وتعداها الموارد الطبيعية بمعناها التقليدي، وإنما لا بد أن يتلائم معها عنصر بشري مسلح بالعلم والمهارات والمعرفة والمعلومات، و مجتمع يُعَلَى من شأن القدرة الفكرية والإبداع والابتكار، ومناخ يسمح بحرية البحث والتفكير والرأي⁽¹¹⁾.

إن خطورة عنف عصر المعلومات تكمن في طبيعة القوى اللينة، فعلى العكس من القوى الصلبة التقليدية التي تستخدمها الجيوش والأجهزة البوليسية، تزداد ضراوة القوى اللينة كلما رهفت واستتريت وخفتت فيها نبرة القوة وفجاعتها. إن هذه الخاصية الفريدة للقوى الرمزية اللينة هي التي تزيد من قدراتها

وغيرها، وتأثيرها على حياة المجتمع الاجتماعية اليومية⁽⁸⁾.

وكشفت الدراسة المذكورة أن " الانضمام إلى موقع الفيس بوك قد شكل إحدى الظواهر المستجدة في المجتمع المصري-ونحن نقول العربي بصفة عامة - في السنوات القليلة الماضية. فعلى نحو ما بينت الدراسة، بدا أن الموقع يستقطب فئات اجتماعية متنوعة من حيث السن والمستوى التعليمي والنوع، لقد أثر هؤلاء الانضمام إلى هذا الموقع الاجتماعي الذي يُتيح لهم الدخول في إطار مجتمع افتراضي متحرر من أسر جميع المؤسسات المجتمعية وقيودها الثقافية والسياسية والأمنية والإدارية والدينية المألوفة التي تتحكم في حياة المواطن المصري⁽⁹⁾، وهكذا نرى كيف وفقت القوى الرمزية إلى جانب القوى العسكرية والسياسية، ويكفي أمثلة هنا، ما قامت به إذاعة ألمانيا النازية في أثناء الحرب العالمية، وكذلك الدور الذي تلعبه وكالات المخابرات المركزية في كواليس السياسة الأمريكية- لكن أكثر الأمثلة مرارة وبشاعة في إساءة استخدام القوى الرمزية هو ما فعلته إذاعة "ميل كوليز" في رواندا بإشعالها نيران الفتنة القبلية بأهل هذا البلد الإفريقي بلا ذنب لهم ولا جريرة، فقد فاق ما حصده هذا البوق الإعلامي اللاأخلاقي من ضحايا قبائل التوتسي ما فعلته القبلة الذرية بأهل هيروشيما ونجازاكي⁽¹⁰⁾.

" لذلك تشمل الآثار المترتبة على التقدم المستقبلي في صناعة الكمبيوتر والمعلوماتية مجالات عدة: منها ما يتصل بالبنية الاجتماعية، ومنها ما يرتبط بالهيكل الاقتصادي للمجتمعات، ويكشف أخطرها عن تأثيرات سياسية على الدول والأفراد.

وشأن أي ظاهرة تتصل بحركة الإنسان وتقدمه، تُظهر على ضفتي التقدم جموع المتفائلين والمتشائمين، كل يسعى لإثبات صواب رؤيته، رؤية المتفائلين مستقبلا من التفوق والرغد والمعرفة غير المحدودة، ورؤية المتشائمين " أن أجهزة الكمبيوتر يمكنها أن تساعد على تحقيق عالم مرعب، تتحكم فيه حكومة شمولية بكل مناحي الحياة مستغلة تقدم وسائل التنصت، بما يصبح معه المجتمع منقسما بين الذين "يملكون المعلومات" و "الذين لا يملكون".

وهناك مخاوف تقترب من تلك التي يجسدها عالم أفلام الرعب أو سينما الخيال العلمي. نتحدث عن عالم صناعة "الإنسان الآلي" التي قد تمتلك إرادة مستقلة ومسلحة بقدرات عقلية وفيزيائية جبارة قد تتفوق بسهولة على قدراتها، تفرض أسئلة عن قدرة هذه الآلات على إيذاء أو السيطرة على الإنسان، كما أن قدرة الكمبيوتر اللازمة لتشغيل مدن ودول بكاملها ستصبح ضخمة جدا بحيث يتم التحكم بها في المجتمع،

المنتشرة التي تعرض مناظر الجنس الفاضح، وكان لابد من البحث عن وسائل تكنولوجية عملية لحماية الصغار باحتجاز الرسائل الإعلامية غير المرغوب فيها، مع عدم الوقوع- بقدر الإمكان - في فخ الرقابة على المعلومات، وكان الحل الوسط فيها يعرف بشريحة " العنف الترفيهي " التي اخترعها الكنديون وأقرها من فوره الكونغرس الأمريكي، وتبعه في ذلك البرلمان الأوروبي . توضع هذه الشريحة الالكترونية داخل التلفزيون، أو في صندوق الكتروني متصل به، وتقرأ هذه الشريحة كود التحذير الذي يحدد درجة العنف، ومدى الإباحية وما شابه، والذي ألزم القانون ضرورة وضعه على كل الأفلام والمواد التلفزيونية والمعلومات التي يتم تبادلها عبر الأنترنت وأجهزة الإعلام.

وفي حملتها الشعواء بعد حوادث الحادي عشر من سبتمبر، سعى الخطاب السياسي الأمريكي إلى توسيع تعريفه لمصطلح " لا للإرهاب " ليشمل الإرهاب المعلوماتي على اختلاف صنوفه ودوافعه، ووصل الزيف بهذا الخطاب إلى أن يدرج جماعات النضال الوطني ضد الاحتلال والقمع الجماعي ضمن قائمته المشبوهة للفئات الإرهابية، وحسبنا أننا لسنا بحاجة إلى التصدي لمثل هذه الآراء التي تولى فضح تناقضاتها كثيرون غيرنا .

وما نريد أن نبرزه هنا أن تكنولوجيا المعلومات، والأنترنت تحديداً، أصبحت سلاحاً مؤثراً في يد الضعيف لمواجهة عنف القوي القابض على زمام السلطة، يشهد على ذلك ما قام به ثوار "زاباتيستا" (الفلاحون البسطاء من جنوب المكسيك) في استخدام الأنترنت لإشهار قضيتهم والدفاع عن حركة نضالهم، وكذلك ما قام به الطلبة الصينيون المناهضون للنظام، والأمريكيون الأفارقة الذين تزداد مهاراتهم يوماً بعد يوم في استخدام الأنترنت للدود عن مواقفهم ومصالحهم ضد القوى المركزية، وفئات الضغط والمصالح. وقد أصبحت الأنترنت من أقوى أسلحة العولمة المضادة، والتصدي لمظاهر الظلم الفادح الذي تتطوي عليه اتفاقيات الجات بصيغتها الحالية .

أما الهاكرز، هؤلاء المتخصصون أصحاب الخبرة العالية في تكنولوجيا المعلومات، فقد اثبتوا قدرتهم العالية في اختراق المعلومات وكسر شفرات المحافظة على سرية البيانات، ومن المعروف أن لدى وكالة المخابرات الأمريكية ومكتب التحقيقات الفدرالي فرقا متخصصة من الهاكرز لا تقتصر مهمتها على حماية شبكة معلوماتهم الحيوية بل تتجاوزها إلى اختراق شبكات الغير في حال الضرورة، ويكفي دليلاً على ذلك ما تعرضت له مواقع الأنترنت الخاصة بالجمعيات والجماعات العربية والإسلامية من أعمال

وتغلغل مفعولها لينفذ إلى طبقات اللاوعي الفردي والجمعي، حيث يفعل فعلته خفية بصورة لا إرادية أو شبه ذلك، وهو الأمر الذي يزيد من صعوبة ملاحقتها والتصدي لها، خاصة بعد أن ترسخ في جوف تنظيمات المؤسسات بهرميتها وتركيز سلطاتها، وتجذ طريقها إلى قلب تشريعات المنظمات الدولية متخذة منها دماراً تستتر وراءه، وخير شاهد على ذلك هو هذا التناقض الصارخ في سعي الولايات المتحدة الأمريكية الدؤوب إلى فرض رؤيتها المشوهة لحقوق الإنسان من خلال ضغوط هائلة تمارسها على منظمات الأمم المتحدة والمنظمات الإقليمية الأخرى (وعلى رأسها جامعة الدول العربية في الآونة الأخيرة) وهو التناقض الحاد الذي وصل بزعامة القطب العالمي الأوحدي إلى أن تصف شهداء المقاومة الفلسطينية بالإرهابيين - وكما قلت لكم في عديد المناسبات والمحاضرات مثلاً أيضاً "الإسلام بالإرهاب" والاستشهاد بالانتحار، والفوضى بالحرية وغيرها من التلاعب بالألفاظ والمصطلحات إعلامياً في الوقت الذي جعلت فيه السفاح شارون صانعاً للسلام .

أما عن ضراوة الإعلام الأمريكي فحدث ولا تخف، وقد سعت دول العالم الثالث ومن ورائها اليونسكو إلى إقامة نظام معلومات عالمي جديد يحمي ضحايا الإعلام الأمريكي من مظاهر عنفه المتعددة، نظام يقوم على موازنة الحق المطلق الذي يتمتع به المرسل الإعلامي في أن يبيت ما يحلو له، بحق مقابل لمستقبل الرسالة الإعلامية أن ينتقي ما يروق له ويلئم ظروفه وبيئته وثقافته، وكما هو متوقع، فقد نسقت الولايات المتحدة المشروع المقترح في مهده تحت ضغوط القوى المسيطرة على مؤسسات الإعلام الأمريكي، وتحت دعوى المحافظة على مبدأ حرية التعبير المكفولة بنصوص الدستور الأمريكي، ومرة أخرى لا يستطيع هؤلاء ستر عورات تناقضهم الصارخ، ونحن نراهم يطالبون حالياً بتكليم أفواه الإعلام العربي صحفه ومذيعه وتلفازه وقنواته الفضائية ومواقعه على الأنترنت، وذلك بهدف فرض نوع من الصمت إزاء ما ترتكبه إسرائيل من عمليات وحشية ضد شعبنا الفلسطيني، وقد وصل الأمر إلى ما يشبه الأوامر الصريحة بعدم الإشادة، بل الإشارة إلى العمليات الاستشهادية، وعدم استغلال الإعلام لجمع التبرعات لضحايا البطش الصهيوني من أبناء فلسطين. وفي حين فشلت على يد الأمريكيين كما أسلفنا - المحاولات السابقة لمنح مستقبل الرسالة الإعلامية الحق رفض بعض ما يليق عليه مرسلها، إلا أن هؤلاء الأمريكيين أنفسهم هم الذين أبدوا انزعاجاً شديداً لتعرض أطفالهم لمظاهر "العنف الترفيهي"، في برامج التلفزيون وأفلام السينما، ومواقع الأنترنت

البيانات، إلا أن هناك لكل شفرة سرية - كما هو معروف - وسيلة فنية لكسرها، فالأمر - على ما يبدو - في حاجة إلى صيغ جديدة يتألف فيها الإلزام من خلال القوانين، مع الإلزام من خلال إشاعة قيم أخلاقية جديدة تتلاءم ومطالب عصر المعلومات .

(ب) الإرهاب ضد المؤسسات : من أخطر مصادر التهديد الإلكتروني للمؤسسات هو اختراق شبكات اتصالاتها والنفوذ إلى قواعد البيانات التي تتضمن المعلومات الحيوية عن أنشطتها المختلفة، وفي ظل المنافسة الشرسة التي تشهدها معظم الأسواق حالياً أصبح التجسس على أنشطة الشركات من قبل منافسيها عبر الأنترنت مصدر قلق حقيقي، وقد تم اختراق شبكات المعلومات لبعض البنوك السودانية في إطار الحملة التي شنت ضد السودان ضمن ما أسموه بتمويل العمليات الإرهابية .

من المظاهر الأخرى لإرهاب المؤسسات معلوماتياً إسقاط موقع المؤسسة على الأنترنت، وذلك بأن يُصوّب إليه وأبّل من الرسائل المولدة تلقائياً التي تظل تنهمر إلى أن تصل إلى حد يعجز فيه الموقع تماماً عن ملاحقتها ليسقط، وتسقط معه - بالتالي - جميع المعاملات التجارية والمالية التي يوفرها موقع المؤسسة لعملائه ووكلائه وشركائه .

من وسائل التهديد الأخرى التي تتعرض لها المؤسسات فك شفرة حماية سرية البيانات التي تتبادلها مع الآخرين خارج المؤسسة من عملاء ووكلاء وما شابه، وقد سمعنا عن هذا الشاب النرويجي الذي أثار الرعب في قلوب أباطرة صناعة السينما في هوليوود بعد أن نشر في الأنترنت برنامجاً من عدة أسطر يمكن به فك الشفرة الرقمية التي تبت بها الأفلام عبر الشبكة، إنه يحق ذكاء الأفراد في مواجهة سيطرة المؤسسات، ولا جدال في أن هذه المعركة لا تزال في بدايتها، وستلقي بظلال كثيفة على ما يجري حالياً في مجال حماية الملكية الفكرية ⁽¹²⁾.

من أجل الوقاية ضد صنوف الإرهاب الإلكتروني تلك، تقيم المؤسسات سياجاً من البرامج المعروفة باسم "جدران الحريق" لمنع النفوذ غير المشروع لشبكة معلوماتها وحمايتها ضد محاولات إسقاط الموقع، ولكن مازالت هذه الوسائل غير آمنة مائة في المائة، وربما ستظل المواقع عرضة لفكرة يتفق عنها ذهن أحد هؤلاء الهاكرز تمكن من الالتفاف حول "جدران الحريق" تلك، وهو ما أدى بالفعل إلى أن يشبهها ببوابات الفولاذ، وقد ركبت في حوائط من ورق.

(ج) الإرهاب ضد الدول : يتمثل الإرهاب الإلكتروني للدول في إمكان النفوذ إلى شبكات التحكم في المرافق العامة مما يتسبب في الشلل التام للبنية التحتية الأساسية، بل واحتمال تدميرها بالكامل. "إن الدول

تعسفية في أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر ورغم كل ما يقال عن جماعة الهاكرز، فلهذه الجماعة وجهها النبيل أيضاً، فهم يتصدون لاحتكار المعرفة بآلاتهم البرامج مجاناً، وإتاحة فرص النفوذ إلى المعرفة التي يُضن بها أصحابها، أو يغالون في تكلفة اقتنائها، بل وينظر إليهم البعض على أنهم "روبين هود" عصر المعلومات الذي يأخذ من الأغنياء ليعطي المحرومين، ومن خلال هذه المقدمة ارتأينا أن ندرج ظاهرة الإرهاب المعلوماتي تحت ثلاثة عناوين رئيسية هي: أ_ الإرهاب ضد الأفراد، ب_ الإرهاب ضد المؤسسات، ج_ الإرهاب ضد الدول.

أ_ الإرهاب ضد الأفراد: وهو كل فعل يقوم به الفرد في تعامله خلال الأنترنت، مهما كان صغيراً، مسجل عليه والكمبيوتر ذو ذاكرة حديدية لا تخبو ولا يعترها النسيان، وكما هو واضح، يمثل هنا تهديداً حقيقياً لهتك الخصوصية الفردية، بعد أن أصبح من الممكن النفوذ إلى ما يتداوله البشر من أحاديث عبر هذه الشبكة، من حوار المناهضين لنظام الحكم، إلى همس المحبين، "وقد شهدت ساحة الأنترنت حالات عدة لـ "الابتزاز المعلوماتي" من قبل أشخاص تمكنوا بوسيلة أو بأخرى - من اصطلياد رسائل البريد الإلكتروني أو التتصت على حلقات الدردشة عبر الأنترنت، وجدير بالذكر هنا أن أكثر برامج الدردشة شيوعاً، والمعروفة باسم ICQ، هي من إنتاج شركة إسرائيلية، وقد تم اقتناؤها أخيراً من قبل كبرى شركات خدمات الأنترنت بأمريكا (أمريكا أون لاين) .

ومن السهولة بمكان النفوذ إلى كل ما تتضمنه حلقات الدردشة التي يشارك فيها المواطنون العرب لكشف ما يختلج بالصدور وما تبطنه السرائر .

"ما يساعد على استخدام الأنترنت كوسيلة للابتزاز، أن التواصل عن بعد يتيح فرصاً عدة لتقصص الشخصيات وما أكثر ما تقمص الرجال شخصيات النساء، وتقمصت النساء شخصيات الرجال لخداع الآخرين والأخريات من أجل البوح بأسرار شخصية حساسة يمكن أن تستغل ضدهم أو ضدهن" علاوة على ذلك، تتيح تكنولوجيا المعلومات وسائل مبتكرة للابتزاز نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، التهديد بالوثائق المزورة، والصور الفاضحة التي يتم تزيفها إلكترونياً لدرجة يصعب التفريق بينها وبين الصور الحقيقية. هذا بخلاف ما صادر تهديد أخرى للنفوذ إلى الحسابات الشخصية، أو السرقة من خلال أرقام بطاقات الائتمان الخاصة بالغير في معاملات التجارة الإلكترونية .

وليس هناك حالياً من حل لحماية خصوصية الأفراد إلا باستخدام أساليب المحافظة على سرية

الفجوة المعرفية ويعمل على استمرارها هي الجماعات الإستراتيجية القوية في بحثها عن المكاسب المادية وعن الربح والثروة وما يرتبط بذلك من هيمنة اقتصادية وسياسية وأن استمرار الهوة المعرفية مسألة مفتعلة إلى حد كبير لضمان استمرار تفوق الغرب وهيمنته على اقتصاديات العالم .

وربما كان أصدق ما يلخص الموقف الآن بالنسبة لمجتمع المعرفة وضرورة العمل على ملء الثغرة المعرفية التي تفصل العالم المتقدم عن العالم النامي هو ما قاله الرئيس الماليزي "مهاتير محمد" عام 1991 -أي منذ أكثر من عقدين من الآن- وهو يصف ما يجب أن يكون عليه المجتمع الماليزي حتى يمكنه مسابقة الأوضاع الجديدة التي سوف تنشأ في المستقبل القريب : "لقد مر على الإنسانية وقت كانت الأرض تعتبر فيه هي الأساس الضروري للازدهار والثروة، ثم جاءت مرحلة تالية تتمثل في عصر التصنيع وفيه ارتفعت المداخل حيث كانت تقوم الحقول، أما الآن فإن المعرفة أصبحت تؤلف - وبشكل متزايد - ليس فقط أساس القوة ولكن أيضا أساس النجاح والتقدم، ولذا فيجب ألا نبخل ببذل أي جهد لإقامة مجتمع ماليزي معلوماتي غني" . وما قاله مهاتير محمد يصدق بحذافيره على كل المجتمعات اللأغربية حتى تستطيع مسابقة ومتابعة التطورات المتلاحقة في مجتمع المعرفة الذي تتبلور ملامحه بسرعة فائقة والذي سيفرض نفسه بقوة في وقت غير بعيد، والطريقة الوحيدة التي يمكن لهذه المجتمعات اللأغربية أن تأخذ بها نفسها هي العمل على تكوين وتنشئة أجيال جديدة من المواطنين تكون لهم توجهات مختلفة عما هو سائد الآن وقدرات على التأمل والتفكير والإبداع والابتكار، بحيث يؤلفون قوة ضخمة عاملة في إنتاج المعرفة وهم من يطلق عليهم الآن اسم "knowledge workers" الذين يكرسون جهودهم في إنتاج وتطوير وتطبيق المعرفة في مختلف المجالات، فإنتاج المعرفة يحتاج إلى وجود ثقافة معرفية متميزة في مجتمع مهيا للتعامل معها وفهمها، وإلا أصبح ما نسميه مجتمع المعرفة مجرد هيكل مادي خال من الإنسانية وفارغ من الحياة"⁽¹⁴⁾.

خاتمة:

إننا نحن العرب والمسلمون - نتحدث كثيرا عن الكمبيوتر والانترنت، لكننا نتحرك ببطء شديد في تحويل فكرنا ومؤسساتنا للتعامل مع هذا المنتج الذي سبقتنا إليه شعوب كثيرة، وليس أمامنا إلا طريق واحد للنهوض والرقى: هو طريق التكنولوجيا الحديثة كما علينا أن نغير ونطور أساليب تفكيرنا في حياتنا كافة، وأن نبذل من رؤيتنا للعالم من حولنا، وأن نتعلم -

بانت معرضة لما يمكن أن نطلق عليه : أسلحة التدمير الشامل باستخدام الأسلحة البيولوجية المعلوماتية المتمثلة في جيوش الفيروسات التي تخترق حدود الدول لنشيع الخراب والفوضى في أرجاء البنية المعلوماتية"، ومن قبيل المفارقة ، فإنه كلما ارتقت الدول في استخدام شبكات نظام المعلومات وزاد الترابط بين هذه الشبكات، زاد تعرضها بالتالي لمثل هذا النوع من التهديد، وهو الوضع الذي يثير أشد القلق لدى الدول المتقدمة التي يتزايد اعتمادها على شبكات المعلومات في إدارة معظم شؤون حياتها"⁽¹³⁾.

علاوة على ما سبق، هناك الإرهاب الإلكتروني بغرض الإضرار بالمصالح الاقتصادية للدولة، وقد مارست إسرائيل هذا النوع من الإرهاب بهدف تشويه صورة السياحة في بعض الدول العربية والإسلامية (مصر على سبيل المثال)

ولا يمكن مواجهة هذا النوع من الإرهاب دون تشريعات دولية مستحدثة، بجانب إشاعة خلق عالمي جديد لن تقوم له قائمة ما لم تتخلص دول العالم المتقدم من نظرتها الضيقة لمفهوم السلام العالمي، وهي النظرة التي تنص على أطراف المشكلة وتنتأى بشدة عن مواجهة أصولها التي تضرب بجذورها في أعماق التاريخ الحديث، وتعدد جوانبها السياسية والاقتصادية والثقافية والأمنية .

"وعلى أية حال فإن ثمة زيادة واضحة ومطردة في عدد الذين يتصلون بمصادر المعرفة العالمية ويستفيدون منها حتى في المجتمعات النامية، ومع ذلك فإن الهوة المعرفية سوف تزداد اتساعا مع العالم المتقدم في مجال إنتاج المعرفة حيث لا تملك دول العالم الثالث لا الإمكانيات والوسائل ولا الإعداد الذهني والعلمي ولا رؤوس الأموال والتكنولوجيات الأساسية لإنتاج المعرفة ولا القدرة على النشر والتسويق في حال النجاح في إنتاج معرفة جديدة في بعض الميادين عن طريق التركيز - مثلا - على دراسة خصائص الموارد الطبيعية المتوفرة لديها مثل الأعشاب والنباتات الطبيعية لاستخلاص فوائدها لعلاج بعض الأمراض المستعصية وتصنيع الأدوية اللازمة منها . فالتوصل إلى المعرفة لن يكفي في حد ذاته للدخول إلى مستوى مجتمع المعرفة إذ لابد من تحويل هذه المعرفة إلى برمجيات يمكن تسويقها على المستوى العالمي والخطر هنا هو أن الكثير من مؤسسات الغرب المهتمة بتنمية العالم الثالث تحصل أثناء تنفيذها لمشروعات التنمية في تلك المناطق على معلومات كثيرة ومتنوعة تستغلها لصالحها الخاص وتحقيق مكاسب وأرباح خيالية من بيعها إلى المؤسسات التي تقوم بتحويلها إلى سلع تحقق لها هي أيضا مزيدا من المكاسب والأرباح ... وواضح من هذا كله أن الذي يتحكم في الهوة أو

والتطور في مناحي الحياة كافة، فمثلا "في إمكان
قرص مدمج واحد أن يحتوي على سبعة آلاف مقالة
 وخمسة وأربعين ألف صورة مع برامج بحث تتيح لك
 الوصول إلى أي منها في لحظات قليلة" (15).

وبسرعة - من الذين سبقونا إلى هذا العالم، بعيدا عن
التشنج والعصبية الجاهلية.
والأهم من هذا كله الابتعاد عن الخوف والهلع من
منتجات العالم الذي سبقنا في مجالات الفكر والعلم

الهوامش

- 1- نبيل غزلان، مقال بعنوان: "سيناريوهات الأفق الرقمي"، مجلة العربي، العدد 524، ربيع الثاني 1423هـ، يوليو 2002، ص 143، 144.
- 2 - سليمان إبراهيم العسكري، مقال بعنوان: "رحلة عمرها 500 عدد: أوراق العربي تدخل الفضاء الإلكتروني"، العدد 500، ربيع الأول 1421هـ، يوليو 2000، ص 13، 14.
- 3 - د. نجلاء محمود رؤوف السيد المصيلحي، مقال بعنوان: "الفيث بوك ورأس المال الاجتماعي في مصر: دراسة سوسيولوجية ميدانية"، مجلة شؤون اجتماعية، العدد 115، السنة 29، خريف 2012، ص 112، 113، 114.
- 4 - شريف محمد عوض، مقال بعنوان: "أثر استخدام تكنولوجيا المعلومات على المعرفة الدينية السائدة بين الشباب الجامعي: دراسة اجتماعية"، مجلة الحداثة، العدد: 141، 142، السنة الثامنة عشر، شتاء 2012، ص 183 (بتصرف طفيف).
- 5 - شريف محمد عوض، المرجع السابق نفسه، ص 187، 188، 189 (بتصرف طفيف).
- 6 - د. نبيل علي، مقال بعنوان: "عنف المعلومات ... وإرهابها"، مجلة العربي، العدد: 526، جمادى الآخرة 1423 هـ، سبتمبر 2002، ص 140، 142.
- 7 - د. نبيل علي، المرجع السابق نفسه، ص 142.
- 8 - نجلاء محمود رؤوف السيد المصيلحي، المرجع السابق نفسه، ص 143 (بتصرف).
- 9 - نجلاء محمود رؤوف السيد المصيلحي، المرجع نفسه، ص 142.
- 10 - نبيل علي، المرجع السابق نفسه، ص 143.
- 11 - نبيل غزلان، مقال بعنوان، "سيناريوهات الأفق الرقمي" مجلة العربي، المرجع السابق نفسه، ص 145.
- 12 - نبيل علي، المرجع السابق نفسه، ص 143، 144، 145 (بتصرف طفيف).
- 13 - نبيل علي، المرجع السابق نفسه ص 145.
- 14 - د. أحمد أبو زيد، مقال بعنوان: "المعرفة صناعة المستقبل"، مجلة العربي، العدد 540، رمضان 1424هـ، نوفمبر 2003م، ص 33.
- 15 - د. سليمان العسكري، مقال بعنوان: "... أوراق العربي تدخل الفضاء الإلكتروني" مجلة العربي، مرجع سبق ذكره، ص 12، 13.